﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنَا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾ [الفتح: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ وجهِ النَّصْرِ ونوعه

لمّا ذكر الله تعالى نصرَ نبيِّه ﷺ في قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾؛ أعقبه ببيان وجه هذا النَّصْرِ؛ وذلك لأنَّ الله ﷻ قد ينصُرُ رُسُله بصَيحَةٍ يُهْلِكُ بها أعداءَهُم، أو برجفَةٍ تُفْنيهِم، أو بجُنْدٍ يُنزلُهُ الله تعالى من السَّماء، أو بتثبيتِ قلوب أتباعِهم من المؤمنينَ؛ ليكون لهم بذلك الجزاءُ الحسنُ العظيمُ، فقال سُبحانَهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾: أصْلُ (سكن) يدُلُّ على خِلافِ الاضطِرابِ[2]، وهو السُّكونُ والطُّمأنينةُ مِن السُّكون الَّذي هو الوَقارُ، وزوالُ الرُّعبِ، والرَّبط على القلوب بما تَثْبُت به الشَّجاعةُ، ويزول به الخوفُ، والسُّكونُ: ثبوت الشَّيء بعد تحرُّك، والسَّكينَةُ في قول الله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الطُّمأنينةُ، وسكونُ النَّفسِ بالتَّشجيعِ أو الصُّلْحِ[3].

2) ﴿جُنُودُ﴾: (جند) تدلُّ تصريفاتُه على التَّجَمُّع والنُّصْرَة، والجَنَدُ: الأرض الغليظَةُ فيها حِجارَةٌ بيضٌ[4]، والجُنْد: الأعوانُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 67.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 92، 186، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(3) الهرويّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 284.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جند).

والأنصارُ[1]، وقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، معناه: لله أسبابُ النَّصرِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبَيِّن الله تعالى أنَّه هو الَّذي أنزلَ الطُّمأنينة والسَّكينةَ في قلوب المؤمنين بالله ورسوله يوم الحُديبية، فهانَت عليهم المَصاعِبُ، وثبَتوا، وسَكَنوا، وزادَهُم ذلك إيمانًا فوقَ إيمانهم، ويقينًا راسِخًا يُعَزِّز تَمَسُّكَهم بدينهم واتِّباعَهُم لرَسولِه الكريم ﷺ، ويُبيِّنُ سُبحانَهُ أنَّ جُنود السَّماوات والأرض بيَدِه ينصُر بها عبادَهُ المُؤمنين حينَ يشاءُ، وهو سُبْحانه عليمٌ بحالِ عبادِه ومَصالِحِهم، حكيمٌ في أحكامه وتدبيرِه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ ممّا قبلَها:

بيانُ عِنايَةِ الله تعالى بإصلاحِ قُلوب الصَّحابةِ الكرامِ

وقعَت جُملَةُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بدلَ اشتِمالٍ مِن مضمون جُملَة: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، وأفادتِ الانتقالَ إلى بيانِ ذِكْر حَظِّ المسلمين مِن فَتح الحُديبية بَعد بيان إنعام الله تعالى على رسولِه ﷺ، فالمُؤمنون هم الجُنود الَّذين قد نُصِرَ النَّبيُّ ﷺ بهم، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: 62]، فكان في ذِكْر عنايةِ الله سُبحانَهُ بإصلاحِ نُفوسِهم وإذهابِ خواطر الشَّيطان عنهم، وإلهامهم إلى الحقِّ في ثبات عزمهم، وقرارةِ إيمانهم، تكوينٌ لأسباب النَّبيِّ ﷺ؛ ليَنْدَفِعوا حين يستنفرُهم إلى العدوِّ بقلوب ثابتَةٍ[4].

---

(1) الجوهريّ، الصِّحاح: (جند).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 151.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 791.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 149.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّمير ﴿هُوَ﴾، ودلالَتُه:

إضمارُ ما يُعلَم مِن غيرِ حاجَةٍ إلى التَّصريح به

ضميرُ الغَيْبَةِ ﴿هُوَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ يَرْجِعُ إلى الله تعالى، وإنَّما أُضْمِرَ؛ لتقدُّمِ التَّصريحِ بالاسمِ الأحسنِ في الآية قبلُ: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، وفي إضماره إشعارٌ بالعِلْمِ بهِ، وأنَّه لا يُحتاج إلى التَّصريح بهِ حتّى يُعْلَمَ؛ إذ لا يُنْزِلُ السَّكينَةَ في القلوبِ إلّا الله ﷻ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمُسْنَدِ موصولًا ﴿ٱلَّذِىٓ﴾:

اختِصاصُ إنزالِ السَّكينة في قُلوب المُؤْمِنين بالله تعالى

جاءَ التَّعبيرُ بالموصول الاسميِّ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لتعليل النَّصْرِ المَذكورِ قبلُ في قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَ السَّكينَةِ من الأمور المُشتهرِ اختصاصُها بالله تعالى؛ إذ مِن شأن جملةِ الصِّلة أن تكون ممّا اشتهرَ بها مرجِعُ الموصولِ، وفي التَّعبير بالمسنَدِ موصولًا أيضًا دلالةٌ على القَصْرِ؛ إذِ الموصول معرفةٌ، والمُسنَدُ إليه هاهنا - وهو الضَّمير ﴿هُوَ﴾ - معرفةٌ، وتعريف طَرَفي الجملةِ مُفيدٌ القَصْرَ والاختصاصَ، فالَّذي يُنزلُ السَّكينَةَ والطُّمأنينةَ في قُلوب المُؤمنين هو الله سبحانَهُ لا غيرُهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الإنزال ماضيًا:

تحقُّقُ حلولِ السَّكينة في القلوبِ وثُبوتُها

عُبِّر بفعل الإنزالِ ماضيًا ﴿أَنزَلَ﴾، في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ إشارةً إلى قوَّةِ ثبوت السَّكينة واستقرارِها في القلوب؛ لأنَّ الإنزال يَقْتَضي الثُّبوتَ لا سيَّما من موضعٍ مرتَفِعٍ بعيدٍ[1]، كما يُفيدُ تحقُّقَ هذا الإنزالِ وحدوثَهُ قطعًا، فأُخْبِرَ عنه، وإنزالُ السَّكينة: إيقاعُها في القَلْبِ بإيجادِ أسبابِها، وأُطلق على ذلك الإيقاع فعلُ الإنزالِ؛ تشريفًا لذلك الوجْدانِ بأنَّه كالشَّيء الَّذي هو في مكانٍ مرتفعٍ فوقَ النّاس، فأُلقِيَ إلى قلوبهم،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 33.

وتلك رِفعةٌ تخييليَّة مرادٌ بها بيانُ شرَفِ ما أُثْبِتَت لهُ على طريقة الاستعارة التَّخييليَّة[1].

سِرُّ إيثارِ الفعلِ ﴿أَنزَلَ﴾ على (قَذَف):

تكريمُ أهلِ الإيمانِ وتَشريفُهُم

أوثِر فعلُ الإنزالِ على القذف في قول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ فِعْلَ القذفِ فيهِ نوعُ إزعاجٍ وإصابةٍ ورُعْب، بخلاف الإنزالِ؛ فإنَّ فيه إثباتًا وترطيبًا وتهيئَةً، ولذا وردَ القذفُ في القلوبِ مختصًّا بالكفّار، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: 26]؛ لِما في لفظ الرُّعب من الإزعاجِ، بخلاف أهل الإيمان، فقد جاءَ التَّعبيرُ عنهم بِلَفْظِ الإنزالِ، فقال سبحانه: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفيه معنًى حكميٌّ، وهو أنَّ مَن عَلِم شيئًا مِن قبلُ، وتَذَكَّره، واستدام تذكُّرَه، فإنَّه إذا وقع؛ لا يتغيَّر، ومَن كان غافلًا عن شيء، فيقع دفعةً يَرْجُفُ فؤادُه، بدليلِ أنَّ مَن أُخْبِر بوقوع صيحَةٍ، وقيلَ له: لا تنزَعِج منها، فوقعت الصَّيحةُ؛ لا يَرْجُفُ، ومَن لَم يُخْبَر بها قبلُ، أو أُخْبِر، وغفلَ عنها؛ يرتجِفُ إذا وقعَت، فكذلك الكافِرُ، فإنَّ الله تعالى أتاهُ من حيثُ لا يحتَسِب، وقذف في قلبِه، فارتَجَف، وأمّا المؤمنُ؛ فقد أتاه الله مِن حيثُ كان يَذْكُرُه، فسَكَنَ، واطمأنَّ[2]، وفي التَّعبير عن السَّكينة والطُّمأنينة والثَّبات بالإنزال إشعارٌ بِعُلوِّ شأنِها، حتّى لكأنَّها كانت مودعَةً في خزائن رحمةِ الله تعالى، ثُمَّ أنزلَها بفَضْله في قُلوبهم بعدَ ذلكَ[3].

دلالةُ تعريفِ لفظِ السَّكينة:

عُمومُ السَّكينةِ المُنْزَلَة وكَمالُها

السَّكينةُ: مِن السُّكون، وهي الطُّمأنينة والوَقار، وقد جاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: "كُلُّ سَكينة في القرآن؛ فهي طمأنينةٌ، إلّا التي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 149.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 67.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 261.

في سورة البقرة[1]، يعني بذلك قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: 248]، والمراد بالسَّكينَةِ في آية الفَتحِ: الثَّبات والطُّمأنينة التي أودعها سبحانهُ في قلوب المؤمنين، فترتَّب على ذلك أن أطاعوا الله سُبحانَه ورسولَه ﷺ، وانشرحَت صُدورُهُم لهذا الصُّلْح بَعد أن ضاقَت في أوَّل الأمر، وبعد أن ظنّوا أنَّ في شروطِ صُلْحِ الحُديبية ظُلْمًا لهم، وأن بايَعوا النَّبيَّ ﷺ على المَوْتِ بعد أن بلغهم أنَّ عثمانَ رضي الله عنه قد قتله المشركون[2]، وفي التَّعبير بلفظ السَّكينة مُعرَّفًا باللّام إشارةٌ إلى شُمولِها وعُمومِها، وكأنَّ الله تعالى قد خصَّ هؤلاء الصَّحابةَ الكرام - رضوانُ الله عليهم أجمعين - مِن المؤمنين الذين كانوا مع النَّبيِّ ﷺ يوم فتح الحديبية بجِنْس السَّكينة كُلِّه؛ تكريمًا لهم وتشريفًا وتثبيتًا، ويجوزُ أن تكون اللّامُ دالَّةً على الكمالِ، أي: أنزلَ السَّكينَةَ الكاملَةَ، ولا تنافيَ بين المعنيين، فيكون المُرادُ: أنَّ الله تعالى أنزل أنواعَ السَّكينَةِ كلِّها بأكمَلِ صوَرِها، وعلَّةُ إنزالِ السَّكينةِ أن يكون ذلك الإنزالُ سببًا لمعرفةِ المُؤْمِنين فضلَ الله عليهم بتيسير الأمنِ لهم بعد الخوفِ، ثُمَّ يكون ذلك العرفانُ سببًا لأن يتَلَقّوها بالشُّكْر مِن الأعمال الصّالحة، فيستأهِلوا به الثَّوابَ والجزاءَ الحَسَنَ، فيُثيبهم الله تعالى بإدخالهم جنّاتٍ تجري مِن تحتها الأنهارُ[3].

معنى حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ ودلالتُهُ:

أشارَ حَرْفُ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾، في قولِ الله تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إلى استِقرارِ الوَقار والسَّكينة والطُّمأنينة التي أنزلَها الله تعالى؛ إكرامًا منهُ سبحانَهُ في قُلوبِ

صفاءُ قُلوبِ الصَّحابةِ ونَقاؤُها واطمِئْنانُها

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 223.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 261.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 376.

صحابَةِ الرَّسول رضوان الله عليهم، الصّابرين لِحُكمه، فكأنَّ قلوبَهم العامرةَ بالإيمان استحالت وِعاءً للسَّكينة، وظَرْفًا لثُبوتِها ورُسوخِها وتمكُّنِها مِن تلك القلوب المُطْمئِنَّة بوَعْدِ الله تعالى، وفي هذا ثناءٌ على تلك القلوب النَّقيَّة التي تَلقَّفت تلك السَّكينةَ، وهذا المعنى لا نجده فيما لو جاء النَّظمُ القرآنيُّ: (أنزل على قلوب المؤمنين) بحرف الاستعلاء (على).

دلالَةُ جَمعِ لَفْظِ ﴿قُلُوبِ﴾:

شِدَّةُ عنايةِ الله تَعالى بالصَّحابة الكرامِ

في التَّعبير عن القلوبِ بلَفْظِ الجَمعِ في قولِ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إيماءٌ إلى كثرة المُؤْمِنين، ولازمُ ذلك الإشارةُ إلى سعَةِ فَضْلِ الله تَعالى وعموم إنعامه بإنزاله السَّكينة على هذه القلوبِ كلِّها، كما أنَّ جمعَ لَفْظِ القُلوبِ ملائمٌ لجمعِ المُؤْمِنين، والقاعِدَةُ: أنَّ مُقابلَةَ الجَمعِ بالجَمعِ تَقتَضي القِسْمَةَ آحادًا، فالسَّكينةُ نازلَةٌ عَلى قَلْبِ كلِّ مؤمنٍ مِنهُم، وذلك يدلُّ على شِدَّة عنايَةِ الله تَعالى بكُلِّ فردٍ من أفراد الصَّحابة ﷺ.

سِرُّ تعريفِ القُلوبِ بالإضافَةِ:

بيانُ فَضْلِ أهلِ الحُدَيْبيةِ وشَرَفِهم

أشارَ التَّعبيرُ بالقلوبِ وجَمعِها في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إلى أنَّ تلك القلوبَ الرّاضيةَ المُطْمَئِنَّة بوعد الله تعالى لها، بمنزلةِ أرضٍ خَصْبة نقيَّة صالحةٍ للإثمار والإنتاج الوفير، فيزداد إيمانُ أصحابِها، ويقوى يَقينُهُم، كما أومأ تعريفُ القُلوبِ بالإضافَةِ في قولِه تَعالى: ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى تخصيص هؤلاءِ - وهم أهْلُ الحُدَيْبيَةِ - بفضل الله عليهم ببثِّ السَّكينة والوقار في قلوبهم؛ لرسوخ الإيمان في قلوبهم، بَعدَ أن دَهَمَهم فيها ما مِن شأنِه أن يُزْعِجَ النُّفوسَ، ويُزيغ القلوبَ مِن صَدِّ الكفّار ورجوع الصَّحابة - رضي الله تعالى عنهم - دون مَقْصودهم، فلم يرجِع أحدٌ مِنهُم عن الإيمانِ بعدَ أن ماج النّاسُ،

وزُلْزِلوا[1]، وفي إضافةِ القلوب إلى المؤمنين أيضًا دلالَةٌ على العُموم؛ وذلك لأنَّ الجمعَ المُضاف يدلُّ على ذلك، فأفاد ذلك أنَّ الله تعالى أنزلَ السَّكينةَ على عمومِ أهلِ الإيمان مِن أهلِ الحُديبية، وفي التَّعبير بالجمعِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلماحٌ إلى أنَّ تلك الفِئَة مِن الصَّحابة - رضي الله عنهم - بمنزلَةِ أُمَّةِ المؤمنين كلِّهم، وهذا ما دلَّ عليه هذا الجَمعُ، وأيُّ تشريفٍ لهم وتكريمٍ بَعْدَ هذا؟.

معنى اللّام في ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ﴾:

إنـزالُ السَّكينةِ عِـلَّـةٌ لـزيـادَةِ الإيـمـان وتَـرْسـيـخِـه في القُلوبِ

اللّام في ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ حرفٌ يُرادُ به التَّعليلُ، أي: إنَّ الله سُبحانَه أنزل السَّكينةَ في قلوب أهل الإيمانِ من أجلِ أن يَزدادوا؛ بسبب تلك السَّكينةِ إيمانًا مُنْضمًّا إلى إيمانهم الحاصلِ لهم مِن قَبلُ[2]؛ وذلك لأنَّ الله سُبحانَهُ عَلِم أنَّ السَّكينة إذا حصلت في قُلوبِهم؛ رسخَ إيمانُهم، فعومِل المعلومُ حُصولُه مِن الفعل مُعاملةَ العِلَّة، وأُدخل عليهِ حرفُ التَّعليل، فكان في ذلك الحادث خيرٌ عظيمٌ لهم، كما كان فيهِ خيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنْ كانَ سببًا لتَشْريفِه بالمغفرةِ العامَّة، ولإتمامِ النِّعمة عليهِ، ولهدايَتِه صراطًا مستقيمًا، ونَصْرِه نَصْرًا عزيزًا[3].

التَّعبيرُ بالفِعْلِ (يزدادوا) مضارعًا، مسندًا إلى واو الجماعَةِ:

تـجـدُّدُ إيمانهم بتَجَدُّد طاعاتهم

عُبِّر بالفعل (يزدادوا) من قول الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ مضارعًا؛ للدَّلالَةِ على تجدُّدِ الإيمانِ واستمرارِ ازديادِه بزيادَةِ طاعاتهم وتقرُّبِهم إلى ربِّهم سُبحانَهُ، وأُسْنِدَ إلى واو الجماعَةِ حَملًا على الجمعِ الواردِ قبله في قوله: ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فيكون ذلك دالًّا على أنَّ كلَّ واحدٍ من أفرادِ المؤمنينَ يزدادُ إيمانًا مع إيمانه؛ إذ قوبِل الجمعُ بالجمع، وذلك يقتضي القسمةَ آحادًا.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 284.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 154.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 150.

غرضُ التَّنكير في ﴿إِيمَٰنَا﴾:

تَـفْـخِـيـمُ شـأنِ إيمانِ الصَّحابة ﷺ وتَعْظيمُهُ

نُكِّر لفظُ ﴿إِيمَٰنَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ لكونه تمييزًا، ومِن شأنِ التَّمييز أن يكونَ نكرةً، ولا يمنَعُ جريانُ الكلمةِ على الأصلِ التماسُ نُكْتَةٍ لها، كما ذكر الشِّهابُ الخفاجيُّ أنَّ كونَ اللَّفْظِ "أمرًا لازمًا بحسَبِ القاعدة النَّحويَّة لا يُنافي قصدَ إفادةِ ما يقتضيهِ المقامُ"[1]، ونُكْتَةُ تنكير لفظ الإيمانِ في الآيةِ الكريمةِ هو التَّعظيمُ والتَّفخيم والتَّشريف، فإنَّ الصَّحابة - ﷺ - رُزقوا إيمانًا عظيمًا لا يُقارَنُ بإيمانِ مَن جاءَ بعدَهُم.

معنى ﴿مَّعَ﴾ ودلالتُها:

تـصـويـرُ قـوَّةِ الإيمانِ وعظمتِه

دلَّ الظَّرفُ ﴿مَّعَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ على المُصاحبَةِ؛ إذ جُعِلَت قوَّةُ الإيمان بمنزلة إيمانٍ آخَرَ دخلَ على الإيمانِ السّابقِ؛ إذِ الواحدُ من أفراد الجِنْس، إذا انضافَ إلى أفرادٍ أُخَرَ؛ زادها قوَّة، فلذلك عَلَّق بالإيمان ظرفَ ﴿مَّعَ﴾ في قوله: ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾، فكان في صُلح الحُديبية خيرٌ عظيمٌ لهم، كما كان فيهِ خيرٌ للنَّبيِّ ﷺ، بأن كان سببًا لتَشريفه بالمغفرة العامَّة، ولإتمام النِّعمة عليه، ولهدايته صراطًا مستقيمًا، ولنَصْرِه نصرًا عزيزًا، فما أعظَمَهُ من حَدَثٍ أعْقَبَ هذا الخيرَ الكبير[2]!

دلالةُ تعريفِ الإيمان بالإضافةِ إلى ضميرِ المؤمنين:

تَـأصُّـلُ الإيـمـانِ ورسوخُه

عُرِّف لفظُ الإيمان بالإضافة في ﴿إِيمَٰنِهِمْ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ للدَّلالةِ على تَشْريفِهم بالإيمانِ واختِصاصِهم بهِ، وفيه إيماءٌ إلى رسوخِ الإيمانِ في قلوبِهم وتجذُّره فيهم وتأصُّلِه.

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 229.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 150.

معنى الواو في ﴿وَلِلَّهِ﴾، ودلالتُها:

الـــواو بـين الاستـئنـافيَّـة والاعتراضيَّة

الواوُ في ﴿وَلِلَّهِ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ استئنافيَّة[1]، والجملة بعدَها مستأنفةٌ، ويجوزُ أن تكون اعتراضيَّةً، وجملة التَّذييل مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ العِلَّة، وهي قوله: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، وبين مُعَلَلها، وهو قولهُ: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ ولذلك عَمَّمَهُما، وجعل بعضَ قضاياهُما إنزالَ السَّكينة والطُّمأنينة - بسبب صلح الحُديبية - والأمن في قلوب المُؤمنين[2].

معنى اللّام في (لله)، وسرُّ إظهار الاسْمِ الأحسَنِ:

تَـنَـوُّعُ نَـصْرِ الله تعالى لأوليائِه

اللّام في (لله) من قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للمُلْك، والمالك يتصرَّف في مُلْكه بما يشاءُ، وذلك يقتضي نصرَهُ سُبحانَهُ لأوليائه بِصُنوفٍ من النَّصْرِ، مِنها: نصرُهُم بجنودِه.

إدخـالُ المَهابةِ والـرَّهـبـة في قُلوبِ السّامعين

وأُظهِرُ الاسمُ الأحسنُ (الله)، وكان مقتضى الظّاهِرِ إضمارُهُ، فيأتي النَّظم القرآنيُّ: (وله جنودُ السَّماوات والأرض)؛ جريًا على قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾، ولكن عُدِلَ عن ذلك إلى الإظهار؛ لتربيةِ المهابَةِ وإدخالِ الرَّهبةِ في نفوسِ المتلقّين.

بلاغةُ تقديمِ متعلّقِ الخبَرِ (لله):

عَظَمَةُ جندِ الله سُبحانَهُ

قُدِّم الجارُّ والمجرور (لله) - وهو متعلِّق الخبرِ المحذوف - في قول الله سُبحانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لإفادَةِ القصْرِ والاختصاص؛ إذ قُصِر مُلْكُ جنودِ السَّماوات والأرضِ على الله سُبحانَهُ قَصْرَ صفةٍ على موصوفٍ قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، ويجوزُ أن يكون قصرًا ادِّعائيًّا، بالنَّظر إلى أنَّ الملوكَ والفاتحين لهم من

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 234.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 375.

الجنودِ ما لهم، ولكن لا اعتدادَ بذلك بالنِّسبة لما لله تعالى من الجُنْدِ والغَلَبَةِ[1].

سِرُّ جمعِ ﴿جُنُودُ﴾ جمعَ كثرةٍ، وتعريفِها بالإضافَةِ:

كثرةُ جُنودِ الله تعالى كثرةً تَسْمو عن العدِّ

جُمِعَ لفظُ الجنود في قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جَمعَ كثرةٍ؛ للإشارَةِ إلى أنَّ جنودَهُ سُبْحانَهُ تفوقُ الحصر والعَدَّ والوَصْفَ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31]، وإضافتُهم إلى السَّماوات والأرضِ ترشيحٌ لبيانِ كثرتِهم؛ حتّى كأنَّ جنودَ كلِّ سماءٍ جِنسٌ مستقلٌّ عن جنودِ السَّماءِ الأخرى، وأنَّ جنودَ السَّماواتِ جنسٌ، وجنودَ الأرض جنسٌ آخَرُ.

بلاغَةُ الطِّباقِ بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و(الأرض):

بيانُ عظمَةِ مُلْكِ الله سُبْحانَهُ

بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و(الأرض) من قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ طباقٌ، وفائدَتُهُ: المبالغَةُ في الدَّلالة على كثرة جنودِ الله تعالى، وأنَّهم مُستوعِبونَ أقطارَ الكَونِ سماءً وأرضًا، فما من بُقْعَةٍ في هذا الكَوْنِ إلّا ولله تعالى جنودٌ فيه.

سرُّ التَّعبيرِ بفِعْلِ الكوْنِ ماضيًا:

عِلْمُ الله تعالى وحِكْمَتُه لازمان له لا يَنْفَكّان عنهُ بحالٍ

التَّعبيرُ بفعل الكَوْنِ ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ للدَّلالة على قِدَم عِلْمه سبحانه وحكمته، وأزليَّتِهما واستمراريَّتِهما أيضًا، فهو سبحانه كان ولا يزالُ عليمًا حكيمًا، و(كان) في هذا الموضِعِ وما يشبهُه تدلُّ على الاستمرارِ.

نُكْتَةُ إظهار الاسمِ الأحسَنِ:

جَمعُ الاسمِ الأحسَنِ (الله) لِصِفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ

في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، وذلك أنَّ مقتضى الظّاهر أن يَرِدَ التَّعبيرُ القرآنيُّ: (وَكان عليمًا حكيمًا)؛ لتقدُّم ذِكْرِ الاسمِ الأحسَن (الله) في الجملةِ قبله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وعُدِلَ عن الإضمارِ؛ لِما في الاسمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 151.

المُظْهِر، وهو الاسم الأحسنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ من صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، والعِلمُ والحِكْمَةُ من أفرادِ تلك الأوصافِ الكُلِّيَّةِ، وفي الإظهارِ إدخالُ المهابَةِ في نفوس المُتلقّينَ، وإشعارٌ بعِلَّةِ الحُكم؛ لأنَّ الألوهيَّةَ مَنْشَأٌ لاتِّصافه سبحانَهُ بصفات الكمالِ، كما أنَّ إظهارَ الاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ يجعل التَّذييلَ بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ جاريًا مجرى المثَلِ؛ لاستقلاله بالإفادَةِ، وعَدَمِ افتقاره إلى غيرِهِ في الكشْفِ عن تمامِ المرادِ منهُ، بخلاف ما لو أُضْمِرَ؛ لكان من التَّذييل غير الجاري مَجْرى المثَلِ، والأوَّلُ أليقُ بهذا المقامِ.

سرُّ إيثار صِفَتَي: (العِلْم والحكمة)، وترتيبِهما:

اقتَضى مقامُ الآية الكريمة إيثارَ خَتمِها بصِفَتَي العِلْمِ والحِكْمةِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ وذلك أنَّ اللَّه تعالى لمّا ذَكَر القلوبَ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ كان من الملائم ذِكْرُ العِلْم إشارةً إلى أنَّه سُبْحانَهُ يعلَمُ خَفاياها، وأُتبِع هذا الوصفُ بوصف الحِكمة إيماءً إلى أنَّه تعالى يَفْعَلُ ما يفعَلُ على وفْقِ العِلْم، وقد أشار الفَخْرُ الرّازيُّ إلى هذا المعنى، فذكر أنَّ اللّه تعالى لمّا قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وكان عَدَدُهم كثيرًا لا يُحْصى؛ أثبتَ العِلْمَ له سُبحانَهُ؛ للإيماءِ إلى أنَّه تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: 3]، وأيضًا: فإنَّه سُبحانَهُ لمّا ذكر القلوبَ؛ أتبعَهُ بذكر العِلْم؛ للإشارةِ إلى أنَّه يعلم السِّرَّ وأخفى، وذِكْرُ الحَكيم بعد العليم إيماءٌ إلى أنَّ فِعْله جارٍ على وفقِ عِلْمه؛ إذِ الحكيمُ هو مَن يعملُ الأمر على وجه الإتقانِ، ويعلَمُهُ، بخلاف مَن يقعُ منه صنعٌ عجيب اتِّفاقًا من غير قصْدٍ، فإنَّه لا يُسمّى حكيمًا، وكذا من يعلَمُ، ويعمَلُ على خلاف العلم، لا يُقال له: حكيمٌ[1].

اقتضاء المقام لِصفتي العِلْم والحكمة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 68، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 287.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿عَلِيمًا﴾ و﴿حَكِيمًا﴾:

نُكِّر الاسمانِ الجَليلان ﴿عَلِيمًا﴾ و﴿حَكِيمًا﴾، مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تعظيمًا لمَدْلولهما، فاللّه سُبحانَهُ له مِن سعَةِ العِلْمِ ودِقَّةِ الحِكْمَةِ ما لا مُنْتَهى لِكَمالهما.

وَجهُ التَّعبيرِ عن الصِّفَتَينِ بصيغَةِ (فعيل):

جَلالَةُ عِلْمِ اللهِ تعالى وحِكْمَتِه

في ذِكْرِ الاسمَينِ الكَريمَين الوارِدَين في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ - بصيغةِ المُبالغَة على زِنَةِ (فَعيل) فيهما - إيماءٌ إلى جلالةِ ما تضَمَّناهُ مِنَ الأوصافِ وسَعتِها وعَظَمَتِها، وهيَ وصْفُ العِلْمِ، ووصفُ الحِكْمَةِ.

بلاغَةُ التَّذييلِ:

عُمومُ عِلْمِ اللهِ تَعالى وسَعَةُ حِكْمَتِه

جاءَ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تذييلًا؛ لِما ذُكِرَ مِن الفَتحِ والنَّصْرِ وإنزالِ السَّكينَةِ في قُلوبِ أهلِ الإيمانِ؛ تعميمًا لما ذُكِر، ولِما لَم يُذكَر، وتقريرًا لمضمون الآيةِ، وأنَّه سُبحانَهُ عَليمٌ بأسْبابِ الفَتحِ والنَّصْرِ، وعَليمٌ بِما تَطْمَئِنُّ به قُلوبُ المُؤمنينَ بَعدَ البَلبَلَةِ، وأنَّهُ تعالى حَكيمٌ يَضَعُ مُقتَضَياتِ عِلْمِه في مواضِعِها المناسِبة وأوقاتِها المُلائمة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّكينةُ والطُّمأنينة:

السَّكينةُ هدوءٌ بعدَ عَدَمِه، والطُّمأنينةُ استقرارٌ بعد عدَمِه

السَّكينةُ تُستعمَلُ في الإنسانِ وغيره، بخلاف الطُّمأنينة فإنَّها لم تُستعمَل إلّا في الإنسان، فيقال: سَكَنت الرّيحُ، ولا يُقال: اطمأنَّت الرّيح، كما قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشّورى: 33]، واستُعمل لفظُ السُّكون في الاستيطانِ، فيقال: سكَنَ فلانٌ كذا، أي: استوطنَهُ، ومنهُ قول اللّه ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 151.

ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: 37]، فالسَّكينَةُ يُراد بها الهدوء بعد عدمه، ولذا يُستعمَل في الأمن بعد فَقْده، كما في قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التّوبة: 40]، ولذا قال أبو هلال: "السَّكينَةُ: مُفارقَة الاضطِراب عندَ الغَضَب والخَوْفِ، وأكثَرُ ما جاء في الخَوفِ"[1].

وأمّا الطُّمأنينةُ؛ فيُراد بها الاستقرار بعد عدمه، ومنه الاستقرار بالرُّجوع إلى الوطن بعد مفارقَته بالسَّفر، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النّساء: 103]، وتُستَعمل بمعنى الاستقرارِ على اليقينِ بعد شكٍّ وتردُّدٍ، كما قال تعالى حكايةً عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: 260]، وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرّعد: 28]، والحاصل: أنَّ السَّكينَةَ هدوءٌ بعدَ عَدَمِه، والطُّمأنينةَ استقرارٌ بعد عدَمِه[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 202.

(2) عبد الجبّار فتحي زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 624، 626.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والخمسون،
سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 56 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-29-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 56 : المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-29-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9075646 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"